د. سعيد الوايل.. من الفن التشكيلي إلى ريادة البحث في التراث العمراني

من الفن التشكيلي والتصوير الفوتوغرافي إلى البحث الأكاديمي وتوثيق العمارة التقليدية، تمتد مسيرة الدكتور سعيد عبدالله الوايل، أحد الباحثين والفنانين السعوديين الذين كرّسوا جانبًا كبيرًا من جهودهم لصون التراث العمراني، وإبراز جمالياته وقيمته التاريخية والحضارية، ولا سيما في الأحساء والمنطقة الشرقية، مع امتداد نشاطه إلى مناطق أخرى من المملكة والخليج العربي.

وتكتسب تجربته أهمية خاصة لكونها تجمع بين المعرفة الأكاديمية والخبرة الميدانية والحس الفني، وهي عناصر أسهمت في تشكيل مشروع ثقافي ومعرفي متكامل، ينظر إلى التراث بوصفه ذاكرة حية للمجتمع، وشاهدًا على إبداع الإنسان وقدرته على التفاعل مع بيئته عبر العصور.

النشأة والتكوين العلمي:

وُلد الدكتور سعيد عبدالله الوايل في الأحساء عام 1966م، وهي منطقة عُرفت بثرائها التاريخي، وتنوع عمارتها التقليدية وفنونها الشعبية وحرفها اليدوية.

وقد أسهم هذا المحيط الثقافي في تشكيل اهتماماته الفنية والبحثية، فكانت العمارة الأحسائية وزخارفها ونقوشها من أبرز المجالات التي استحوذت على اهتمامه.

بدأ مسيرته العلمية بالحصول على دبلوم التربية الفنية عام 1988م، ثم واصل تحصيله الأكاديمي حتى نال درجة البكالوريوس في اللغة والأدب الإنجليزي عام 2014م.

ولم يتوقف طموحه العلمي عند هذا الحد، بل حصل على درجة الماجستير في الفنون الجميلة عام 2017م، ثم توّج مسيرته الأكاديمية بالحصول على درجة الدكتوراه في العمارة الداخلية عام 2023م.

ويكشف هذا التنوع في المؤهلات عن شخصية علمية تجمع بين التربية والفنون واللغة والعمارة، وهو تكامل انعكس على طبيعة أبحاثه ومشروعاته ومؤلفاته.

أكثر من ثلاثة عقود في التعليم والفنون:

شكّل التعليم أحد المحاور الأساسية في حياة الدكتور سعيد الوايل، إذ أمضى ما يزيد على ثلاثين عامًا في تدريس الفنون بمدارس التعليم العام.

ولم تقتصر تجربته التعليمية على نقل المهارات الفنية إلى الطلاب، بل امتدت إلى غرس قيم الجمال والإبداع، وتعزيز الوعي بأهمية الفنون في بناء شخصية الإنسان وتنمية قدراته التعبيرية.

كما عمل أستاذًا زائرًا في المعهد الملكي للفنون التقليدية بالرياض، حيث أسهم في تعليم طلبة الدبلوم العالي للزخارف التقليدية، مستفيدًا من خبرته الطويلة في هذا المجال.

وشارك كذلك عضوًا في فريق خبراء برنامج الدبلوم العالي في فنون الزخارف التقليدية، ومستشارًا أكاديميًا لتطوير مناهجه عام 2023م.

وتبرز أهمية هذه المشاركة في نقل الخبرات المتراكمة إلى الأجيال الجديدة، وربط الموروث الفني بالمؤسسات التعليمية المتخصصة، بما يسهم في استدامة الفنون التقليدية وتطويرها.

مشروعات توثيق التراث العمراني:

أنجز الدكتور سعيد الوايل خلال مسيرته البحثية عددًا من المشروعات المتخصصة في توثيق المباني التاريخية، ودراسة عناصرها المعمارية والزخرفية في الأحساء ومناطق مختلفة من المملكة والخليج العربي.

وقد أولى اهتمامًا خاصًا بالأبواب الخشبية التقليدية والنقوش الجصية والزخارف المعمارية، باعتبارها شواهد فنية وتاريخية تعكس مهارات الحرفيين وخصوصية البيئة العمرانية في المنطقة.

ومن أبرز مشروعاته توثيق حرفة النجارة التقليدية في الخليج العربي، بما تشمله من صناعة الأبواب الخشبية والنقوش والزخارف المرتبطة بها.

وتكمن أهمية هذا المشروع في المحافظة على المعرفة الحرفية المتوارثة، وتسجيل أساليب الصناعة

والتشكيل الفني التي استخدمها النجارون التقليديون، والتي قد تتعرض للنسيان مع تراجع ممارسة بعض الحرف القديمة.

كما شارك في مشروع حصر وتوثيق التراث الثقافي غير المادي في محافظة الأحساء، بالتعاون مع الجمعية السعودية للمحافظة على التراث عام 2019م، مع التركيز على الزخارف والنقوش الجصية.

ويمثل هذا العمل إضافة مهمة إلى الجهود الرامية إلى حفظ الذاكرة الفنية والمعمارية للأحساء، وتوفير مادة توثيقية يمكن الاستفادة منها في الدراسات العلمية ومشروعات المحافظة على التراث.

الإسهام في ترميم المباني التاريخية:

لم تتوقف جهود الدكتور الوايل عند حدود الدراسة النظرية والتوثيق، بل امتدت إلى العمل الميداني في ترميم المباني التاريخية والمحافظة على عناصرها الفنية.

فقد أشرف على ترميم عدد من المباني التاريخية الرسمية والخاصة في المملكة العربية السعودية، بالتعاون مع وزارة الثقافة.

ومن أبرز أعماله الإشراف على ترميم النقوش الجصية في مجالس حائل التاريخية عام 2020م.

وتتطلب هذه الأعمال معرفة دقيقة بطبيعة المواد التقليدية وأساليب تنفيذ الزخارف، فضلًا عن إدراك القيمة التاريخية والفنية للعناصر المعمارية المراد المحافظة عليها.

وتبرز أهمية هذه الجهود في أن ترميم المباني التراثية لا يعني مجرد إصلاح ما تعرض للتلف، وإنما المحافظة على أصالة المبنى وخصائصه الجمالية والتاريخية، بما يضمن استمرار حضوره شاهدًا على مراحل مهمة من تاريخ المجتمع.

تطوير الحرف والمنتجات التقليدية:

أسهم الدكتور سعيد الوايل في عدد من المشروعات المرتبطة بتطوير الحرف التقليدية والمنتجات المستوحاة من التراث.

ومن أبرزها مشاركته في مشروع تصميم وتطوير الحرف والمنتجات التقليدية، بالتعاون مع مركز الإبداع الحرفي التابع لوزارة الثقافة.

كذلك شارك في تنفيذ مشروع التصميمات الأولية لتطوير صناعة البسط والسجاد اليدوية في الهيئة العليا للسياحة.

كما شارك في تصميم عدد من المباني والمنتجات الحرفية التقليدية المطوّرة، ضمن جهود تسعى إلى الاستفادة من العناصر التراثية وإعادة توظيفها بصورة تتناسب مع الاحتياجات المعاصرة.

وتتجلى أهمية هذا التوجه في الانتقال بالتراث من مجرد مادة تاريخية محفوظة إلى مصدر للإبداع والإنتاج، مع المحافظة على هويته وخصائصه الأصيلة.

ومن مشروعاته المميزة الإشراف على تنفيذ مجسم ونصب تذكاري يجسد أشكال وأنواع الأبواب التاريخية في المنطقة الشرقية، بتكليف من مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي «إثراء» بالظهران عام 2024م.

ويعكس هذا العمل رؤية فنية تسعى إلى إبراز جماليات العمارة التقليدية، وتحويل عناصرها إلى أعمال فنية معاصرة تتيح للجمهور التعرف على جانب من تاريخ المنطقة وهويتها المعمارية.

التدريب ونقل الخبرات الفنية:

يمثل التدريب ونقل المعرفة جانبًا مهمًا من نشاط الدكتور سعيد الوايل، إذ شارك في إقامة العديد من الدورات والمحاضرات وورش العمل المتخصصة.

كما أشرف على تنظيم مجموعة من الدورات والمعارض التشكيلية وورش التصوير الفوتوغرافي ورسوم الأطفال.

ومن مشاركاته التدريبية ورشة «أبواب من عبق التاريخ»، التي أقيمت في قلعة الجاهلي بمدينة العين في أبوظبي خلال موسمي 2019 و2022م، برعاية دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي.

وشارك كذلك في البرنامج التدريبي «تقنيات الرواية التاريخية: وجهة النظر السردية»، الذي أقيم في

دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام 2022م، إضافة إلى مشاركته في ورشة «الفن والاستدامة» ضمن فعاليات الرياض آرت عام 2021م.

وفي يونيو 2023م، شارك في أسبوع التصميم الداخلي العربي الثالث، من خلال موضوع تناول المؤثرات الدينية والاجتماعية في تصميم المسكن في الأحساء، مع التركيز على المجالس الحسينية.

وتكتسب هذه المشاركة أهمية خاصة لأنها تتناول العلاقة بين العمارة والمجتمع، وتوضح كيف تؤثر القيم الدينية والاجتماعية والعادات المحلية في تشكيل الفراغات الداخلية للمساكن.

وفي عام 2024م، شارك في ورشة عمل بمدينة دبي بعنوان «أبواب دبي التاريخية وزخارفها»، تحت مظلة هيئة دبي للثقافة والفنون.

وتعكس هذه المشاركات امتداد نشاطه العلمي والفني إلى مؤسسات ثقافية خليجية متعددة، واهتمامه بتبادل الخبرات في مجالات العمارة التقليدية والفنون التراثية.

مبادرات ثقافية وفنية متنوعة:

إلى جانب مشروعاته البحثية والمعمارية، امتدت اهتمامات الدكتور سعيد الوايل إلى مجالات فنية وثقافية أخرى.

فقد افتتح صالة لعرض الأعمال الفنية باسم «أصيل جاليري»، واستمر نشاطها من عام 1995م حتى عام 1999م، بما يعكس اهتمامه بإيجاد مساحات لعرض الإنتاج الفني والتعريف به.

كما أصدر مجلة للأطفال تُعنى بنشر القصص المصورة والرسوم والإنتاج الفني الموجه إلى هذه الفئة العمرية.

وتكشف هذه المبادرات عن تنوع اهتماماته الثقافية، وعدم اقتصار نشاطه على مجال التراث العمراني، بل امتداده إلى تشجيع الفنون البصرية وتعزيز حضورها في المجتمع.

كما شارك في تحكيم العديد من المناسبات والمسابقات المتعلقة بالتصوير الضوئي والفن التشكيلي،

مستفيدًا من خبرته الفنية الممتدة.

مؤلفات توثق الذاكرة العمرانية:

يمثل التأليف والبحث العلمي جانبًا بارزًا من تجربة الدكتور سعيد الوايل، إذ أصدر عددًا من الكتب المتخصصة في العمارة التقليدية والفنون الزخرفية.

ومن أبرز مؤلفاته:

* الأبواب والنقوش الخشبية في عمارة الشارقة التقليدية، عام 2003م.

* الأبواب والنقوش الخشبية في عمارة المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، عام 2011م.

* الأبواب والنقوش الخشبية الإسلامية في المباني التاريخية في الخليج العربي، عام 2014م.

* النقوش الجصية، عام 2015م.

* أبواب دبي التاريخية، عام 2020م.

* المعجم الإثنوغرافي للمصطلحات الدارجة المستخدمة في البيئة العمرانية التقليدية في الأحساء، عام 2024م.

* المسكن في عمارة الأحساء التراثية.. تاريخ وهوية، عام 2024م.

* الزخارف والنقوش الجصية في عمارة الأحساء التاريخية، عام 2026م.

وتكشف هذه المؤلفات عن اتساع اهتماماته البحثية، وانتقالها من دراسة العناصر الزخرفية المفردة إلى تناول العمارة التقليدية باعتبارها منظومة متكاملة من التاريخ والفنون والهوية الاجتماعية.

وتكتسب هذه الإصدارات أهمية إضافية لأنها توفر مادة علمية للباحثين والمهندسين والمعماريين

والمهتمين بالتراث، وتسهم في حفظ المصطلحات والممارسات الفنية المرتبطة بالعمارة القديمة.

حضور فني محلي ودولي:

إلى جانب نشاطه البحثي، يتمتع الدكتور سعيد الوايل بتجربة فنية ممتدة في التصوير الفوتوغرافي والفن التشكيلي.

وقد شارك في العديد من المعارض والمسابقات والمناسبات الفنية داخل المملكة وخارجها، ومثّل المملكة العربية السعودية في فعاليات ومهرجانات دولية.

ومن أبرز مشاركاته معارض فنية في بريطانيا وألمانيا ودول الخليج العربي، إلى جانب مشاركات متعددة في المعارض التشكيلية السعودية.

كما أشرف على تنظيم المعرض التشكيلي في الأيام الثقافية السعودية بمملكة البحرين عام 2007م.

وتكشف هذه المشركات عن حضور فني يتجاوز حدود المكان، ويجمع بين إبراز الهوية المحلية والانفتاح على التجارب الفنية الأخرى.

جوائز وتكريمات:

حصل الدكتور سعيد الوايل على عدد من الجوائز وشهادات التقدير المحلية والدولية، تقديرًا لإسهاماته الفنية والثقافية.

ومن أبرزها حصوله على المركز الثاني في المعرض العام السادس عشر للمقتنيات بالرياض عام 2002م، والمركز الأول في المعرض العام السابع عشر للمقتنيات عام 2004م.

كما نال الجائزة الثالثة في مسابقة البحوث المصورة التي نظمتها مجلة قافلة الزيت عام 2003م.

وحصل على الميدالية البرونزية في تصوير الأطفال خلال المهرجان العربي الأوروبي الخامس بألمانيا عام 2008م، والميدالية الفضية في محور المرأة والعمل خلال المهرجان العربي الأوروبي السابع عام 2010م.

ومن تكريماته أيضًا تكريم خاص من مؤسسة رضا الوقفية لتنمية الإبداع المعرفي بالأحساء في فبراير 2024م.

وتمثل هذه الجوائز محطات تقدير لمسيرة طويلة من العمل الفني والبحثي.

حضور في المؤسسات الثقافية والعلمية:

لم تكن جهود الدكتور سعيد الوايل فردية فحسب، بل ارتبطت أيضًا بالمشاركة في مؤسسات وجمعيات ثقافية وعلمية.

فهو عضو في عدد من الهيئات والجمعيات المحلية والدولية، ومن بينها المجلس الدولي للمعالم والمواقع «إيكوموس»، والجمعية السعودية للمحافظة على التراث، وجمعية التراث العمراني بدولة الإمارات العربية المتحدة.

كما شارك في مؤتمرات وورش عمل متخصصة في العمارة والتراث والفنون التقليدية، وأسهم في تحكيم مسابقات فنية وتصويرية.

ويعكس هذا الحضور اتساع دائرة اهتماماته، وحرصه على التواصل مع المؤسسات المعنية بحماية التراث وتطوير الفنون.

من المحافظة على التراث إلى صناعة المستقبل:

إن القيمة الأعمق في تجربة الدكتور سعيد الوايل لا تتمثل في عدد المؤلفات أو المعارض أو الجوائز فحسب، وإنما في طبيعة الرسالة التي تحملها أعماله.

فالتراث العمراني ليس مجرد مبانٍ قديمة أو زخارف جميلة، بل سجل تاريخي يحفظ علاقة الإنسان بالمكان، ويكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للأجيال السابقة.

وعندما يوثق الاحث بابًا خشبيًا قديمًا، أو نقشًا جصيًا، أو مصطلحًا معماريًا متوارثًا، فإنه يحفظ جزءًا من ذاكرة المجتمع، ويمنح الأجيال القادمة فرصة لفهم تاريخها وهويتها.

ومن هنا تبرز أهمية الجمع بين التوثيق العلمي والتعليم والتطبيق الفني، وهي المجالات التي تلتقي في تجربة الدكتور الوايل.

كما أن الاستفادة من العناصر التراثية في التصميم المعاصر تمثل مسارًا مهمًا للمحافظة على الهوية المعمارية، دون الوقوف عند حدود الماضي أو الاكتفاء باستنساخه.

الرسالة التراثية: حين يصبح الفن وفاءً للمكان

تقدم مسيرة الدكتور سعيد عبدالله الوايل نموذجًا للباحث والفنان الذي جعل من التراث مجالًا للمعرفة والإبداع والعطاء.

فمن قاعات التعليم إلى ميادين البحث والتوثيق، ومن عدسة التصوير إلى صفحات المؤلفات، ومن دراسة النقوش والأبواب التاريخية إلى المشاركة في ترميم المباني وتطوير الحرف التقليدية، تتشكل تجربة ثرية تستحق الإشادة والتقدير.

ولعل ما يمنح هذه التجربة خصوصيتها هو ارتباطها الوثيق بالأحساء، تلك الواحة التي احتضنت نشأته، وكانت مصدرًا مهمًا لإلهامه واهتماماته العلمية والفنية.

لقد أسهم الدكتور الوايل في توثيق جوانب من ذاكرة الأحساء العمرانية، وفي التعريف بملامحها الجمالية والحضارية، مع امتداد جهوده إلى مناطق أخرى من المملكة والخليج العربي.

إن الأوطان لا تحفظ تاريخها بالحجارة وحدها، وإنما تحفظه أيضًا بعقول الباحثين، وعدسات المصورين، وريش الفنانين، وأقلام المؤلفين الذين يدركون أن المحافظة على التراث مسؤولية ثقافية وحضارية تجاه الأجيال القادمة.

وفي هذا السياق، تظل تجربة الدكتور سعيد الوايل شاهدًا على أن الوفاء للمكان لا يكون بالكلمات وحدها، بل بالعمل المتواصل الذي يصون ذاكرته، ويحفظ ملامحه، ويمنح تاريخه حضورًا متجددًا في الحاضر والمستقبل.